قصة
الإسراء والمعراج

أ.د / عبد الحميد هنداوي

أستاذ ورئيس قسم البلاغة والنقد الأدبي والأدب المقارن

بكلية دار العلوم- جامعة القاهرة

إهداء

- إلى زهور النور
- إلى باقات الأمل
- إلى بوارق الجهاد على قبة الأقصى
- إلى أطفال الحجارة في القدس الأسير
- إلى مشاعل النور إلى طريق الخلافة
- إلى الشباب المسلم الصادق المتميز من الغيظ لأجل المسجد الأقصى
- إلى أبنائي الأعزاء الذين أرجو أن يحملوا مشاعل النور من بعدي في طريق حافتاه الثبات والحكمة.
- إلى أحبتي وفلذات كبدي: جهاد وعبد الرحمن وعبد الله وأميمة الله وأحمد ومنة الله.

د. عبد الحميد هنداوي

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨) ﴾

سورة النجم الآيات ١: ١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إنَّ من أهمِّ سِمَاتِ المعجزات والخوارق الكونيَّة، أَنَّهَا تبقى مثارًا للعَجَبِ والدَّهْشَةِ إلى آخر الزَّمان؛ وذلك لأنَّها تُعَدُّ خَرْقًا للنَّواميس المُطَّرِدَةِ إلى آخر الزَّمان؛ تلك النَّواميس التي لا يَتَصَوَّرُ المرءُ اختلالَها أو انكسارها في يومٍ من الأيَّام.

لذا تبقى الدَّهْشَةُ حاضرةً متجدِّدَةً كلَّما تَذَكَّرْنَا ذلك الحَدَثَ الجليل.

ولكن إذا كانت الدَّهْشَةُ والتَّعَجُّبُ والاستغراب لذلك الحدث قديمًا قد تصل إلى حدِّ إنكاره؛ فَلَعَلَّ في تأمُّل ما حدث في العصر الحديث من مخترعات وتطوُّراتٍ ما يخفِّفُ ذلك العَجَبَ وتلك الدَّهشة، بحيث لا يصل ذلك إلى حدِّ الاستبعاد والاستنكار، وإن كان ذلك كلُّه لا يقوى على أن يطفئ بَرِيقَ ذلك الحَدَثِ وطَرَافَتَه؛ بل على العكس من ذلك، إنَّه يدعو إلى تَأَمُّلِ ذلك الحَدَثِ العظيم، من منظورٍ جديدٍ، يُنْظَرُ إليه من زاويةِ الممكن عقلاً وواقعًا؛ ممَّا يُسْهِمُ في تعميق الإيمان بتلك المعجزة النَّبويَّة الخالدة.

وأَلْفِتُ القارئَ في هذه المقدِّمة إلى أنَّني قُمْتُ بعرض تلك الرِّحلة الغَرَّاءَ بطريقةٍ قَصَصِيَّةٍ طريفةٍ بعيدةٍ عن طريقة السَّرْدِ النَّصِّيِّ المباشر؛ حتى لا أقطع على القارئ خيالَه في استجلاء مشاهد تلك الرحلة العجيبة.

ولِوَعْيِنَا بقيمة النُّصوص وضرورة إثباتها وتوثيقها، قُمْتُ بإثبات أهمِّ النُّصوص الصَّحيحة الثابتة في تلك القصَّة، بعد الانتهاء من العرض القصصيِّ لها، وذلك من خلال عَرْضٍ لأهمِّ المسائل المتعلِّقة بالقصَّة.

كما أَلْفِتُ القارئَ إلى أنَّني قد استبعدتُ كلَّ ما يتعلَّق بتلك القصَّة من الرِّوايات الضَّعيفة، أو غير الثابتة، ولذا فسوف يفتقد القارئُ في هذا الكتاب قَدْرًا كبيرًا من معارفه السَّابقة تجاهَ هذه الرِّحلة، إذا كان مصدرُ تلك المعارف هو الشَّائع من الأخبار الضعيفة والموضوعة.

د/ عبد الحميد هنداوي

الجيزة في ١٤٢٢/٦/٢٢هـ

الموافق ٢٠٠١/٩/١٠ م

مع الرسول ﷺ في الإسراء والمعراج

١

ليلة الإسراء – بيت المقدس...

كانت السَّماءُ في تلك الليلة مُنِيرَةً مُبْتَهِجَةً مُزْدَانَةً بأنوار تلك النُّجوم المتلألئة التي تعلَّقت بالأُفُقِ كأنَّها زينةٌ قد هُيِّئَتْ لاستقبال زائرٍ عظيمِ الجاه والمكانة.

وكانت وفود الملائكة الكرام على باب المسجد الأقصى في استقبال ذلك الزَّائر الكريم يَقُومُونَ على حِرَاسَةِ ذلك الباب؛ لئلاَّ يُغْلِقَه أحدٌ.

وجاء بِطْرِيقُ بيت المقدس في تلك الليلة كعادته ليُغْلِقَ أبوابَ المسجد، حيث اعتاد كلَّ ليلة ألاَّ ينام حتَّى يُغْلِقَ أبوابَ المسجد كلَّها.

ودار البِطْرِيقُ على أبواب المسجد الأقصى يُغْلِقُهَا بابًا بابًا، حتى أغلقها جميعًا عدا بابٍ واحدٍ قد استعصى عليه فلم يستطع إغلاقه.

وهنا يدعو البِطْرِيقُ عُمَّالَ المسجد الأقصى وخُدَّامَهُ؛ ليساعدوه في إغلاق الباب، فلم يستطيعوا إغلاقَه!

فجمعوا كلَّ الحاضرين، وتعاونوا جميعًا على إغلاق ذلك الباب، ولكن دُونَ جَدْوَى!

ويتعجَّب البطريقُ قائلاً: سبحان الله! إنَّنا جميعًا لا نستطيع أن نحرِّك باب المسجد!

إنَّ بابَ المسجد قد ثَقُلَ كأنَّه جَبَلٌ عظيمٌ لا نستطيع زحزحتَه من مكانه!

وهنا فَكَّرَ البطريقُ أنَّ هناك سببًا يَحُولُ دون تحريك الباب؛ فعلَّه قد أَصَابَتْهُ رُطُوبَةٌ أو شَيْءٌ، أو علَّه قد سقط عن سكانه، فلابدَّ أن يدعو إليه النَّجَّارِينَ.

وفِعْلاً أَمَرَ البِطْرِيقُ بإحضار النَّجَاجِرَةِ. ونظر النَّجَاجِرَةُ إلى الباب وفحصوه جيِّدًا، ثمَّ قالوا: إنَّ هذا البابَ سقط عليه السجافُ والبُنْيَانُ، ولا نستطيع أن نحرِّكَه حتَّى نصبح، فننظر من أين أتى!

وهنا لم يَجِدِ البطريقُ وَمَنْ معه بُدًّا من الرُّجوع، فرجعوا وتركوا البابين مفتوحين على مصراعيهما.

مضى البِطْرِيقُ وهو مُتَعَجِّبٌ أَشَدَّ العَجَبِ لهذا الأمر، ولم يَكُنْ يَدْرِي ما سَبَبُ ذلك.

ولكنَّه عاد في الصَّباح لِيَرَى شَيْئًا أعجبَ ممَّا رآه بالأمس.

لقد عاد البِطْرِيقُ إلى البابين ونظر في زاوية المسجد، فإذا الحَجَرُ الذي في زاوية المسجد مثقوبٌ،

وإذا فيه أَثَرُ مربط دابَّةٍ! سبحان الله! إنَّ هذا هو الموضع الذي كانت فيه الحَلْقَةُ التي كان يربط بها النَّبِيُّون دوابَّهم عندما يأتون لزيارة هذا المسجد!

وهنا أقبل البِطْرِيقُ على أصحابه قائلاً: «ما حُبِسَ هذا البابُ اللَّيْلَةَ إلاَّ على نَبِيٍّ، وقد صلَّى الليلة في مسجدنا»[1].

وفي هؤلاء القوم أبو سفيان قبل أن يُسْلِمَ، وكان كبيرَ قومه ومقدَّمَهم، فسأله هرقلُ عن شأن محمَّدٍ صلى ﷺ؛ يقول أبو سفيان: «واللهِ ما مَنَعَنِي من أن أقول عليه قَوْلاً أُسْقِطُه مِنْ عَيْنِه، إلاَّ أنِّي أكره أن أَكْذِبَ عندَه كَذِبَةً يأخذُها عَلَيَّ، ولا يُصَدِّقُني في شيءٍ.

قال: حتى ذَكَرْتُ قوله ليلة أُسْرِيَ به.

قال: فقلتُ: أيُّها الملك! ألا أُخْبِرُكَ خَبَرًا تعرف أنَّه قد كَذَبَ؟

قال: وما هو؟

قال: قُلْتُ: إنَّه يَزْعُمُ لنا أنَّه خَرَجَ مِنْ أرضنا أرضِ الحَرَمِ في ليلةٍ فَجَاءَ مسجدَكم هذا، مسجدَ إيلياء

---

(١) القصة بتمامها ذكرها الحافظ ابن كثير في تفسيره، (٣/٢٤) سورة الإسراء، عن الحافظ أبي نعيم الأصبهاني بإسناده في الحلية.

(بيت المقدس) وَرَجَعَ إلينا تلك اللَّيلَةَ قَبْلَ الصَّبَاحِ».
وكان ذلك البِطْرِيقُ خَادِمُ بيت المقدس قائمًا عند رأس هِرَقْل، فقال: قد عَلِمْتُ تلك الليلة.

قال: فنظر إليه قيصر، وقال: وما عِلْمُكَ بهذا؟

وهنا تذكَّر البطريقُ تلك اللَّيْلَةَ العجيبةَ التي حاول فيها هو ومن معه إغلاقَ باب المسجد فلم يَسْتَطِعْ، فَقَصَّ القصَّةَ على المَلِكِ وهو يتعجَّب لذلك، إنَّها حقًّا قِصَّةٌ عَجِيبَةٌ!

ولكن لا عَجَبَ في ذلك؛ فما حَدَثَ في تلك اللَّيْلَةِ من الإسراء برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى في جزءٍ يَسِيرٍ من اللَّيْلِ لهو أشدُّ عَجَبًا!

٢

ما قبل الإسراء...

لقد كانت رحلةُ الإسراء والمِعْرَاجِ تكريمًا لِنَبِيِّهِ الكريم محمَّدٍ صلواتُ الله وسلامه عليه.

لقد كانت بمثابة التَّرفيه عن النَّبيِّ الكريم إزاءَ ما لَقِيَ من عَنَتِ قومه وإيذائهم له.

وحتَّى نتبيَّن ذلك تعالوا نتعرَّف على الأحداث التي تَعَرَّضَ لها النَّبيُّ ﷺ قبل تلك الرِّحلة.

لقد اشتدَّ إيذاءُ قريش للنَّبيِّ ﷺ وأصحابه، حتَّى بلغ من عداوتهم للنَّبيِّ ﷺ ومن معه من المؤمنين أن أعلنوا مُقَاطَعَتَهم، وكتبوا معاهدةً بذلك تُحَرِّمُ على النَّاس أن يبيعوا أو يشتروا شيئًا من المسلمين، كما تُحَرِّمُ عليهم أن يتزوَّجوا منهم أو يُزَوِّجُوهم، وكتبوا ذلك في صحيفةٍ وعلَّقوها في جَوْفِ الكعبة.

وقد نَجَحَ هؤلاء المشركون الظالمون في فرض رأيهم على النَّاس، فاضطر الرسول ﷺ ومن معه إلى الاحتباس في شِعْبِ بني هاشم هم وبنو عبد المُطَّلِبِ، ما عدا أبا لهب الذي ناصر قريشًا ضدَّ قومه،

وضيَّق الحصار على المسلمين، وانقطع عنهم العَوْنُ، وقلَّ الغذاءُ حتَّى بلغ بهم الجَهْدُ غَايَتَه، وسُمِعَ بكاءُ أطفالهم مِنْ وَرَاءِ الشِّعْبِ يتضوَّرون من الجُوعِ.

وكان أصحاب النَّبيِّ ﷺ إذا قَدِمَتْ قافلةٌ تجاريَّةٌ إلى مكَّة، يأتي أحدُهم السُّوقَ ليشتري شيئًا من الطَّعام قوتًا لعياله، فيقوم أبو لهب، فيقول: يا معشر التُّجَّارِ غالوا على أصحاب محمد ﷺ حتى لا يُدْرِكُوا معكم شيئًا، وقد عَلِمْتُم مالي ووفاءَ ذِمَّتي، فأنا ضامنٌ، لا خَسَارَ عليكم. فيَزِيدُونَ عليهم في السِّلْعَةِ قيمتَها أضعافًا حتى يَرْجِعَ أحدُهم إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع. وليس في يده شيءٌ يُطْعِمُهُم به، ويغدو التُّجَّارُ على أبي لهبٍ فَيُرْبِحُهم فيما اشتروا من الطَّعام واللِّباس، حتَّى جَهِدَ المؤمنون ومَنْ معهم جوعًا وعُرْيًا.

بَقِيَتْ هذه الضَّائقةُ بالمسلمين ثلاثَ سِنِينَ شديدة، كان رباط الإيمان وحدَه هو الذي يُثَبِّتُ قلوبَ المؤمنين، ويُصَبِّرُهم على ما هم فيه من الجَهْدِ والأَذَى، إلى أن أَذِنَ اللهُ بانفراج تلك الضَّائقة؛ حيث سعى جَمَاعَةٌ من كبار القوم في نَقْضِ تلك الصَّحيفة، بعد أن رَقَّتْ قلوبُهم لما حَلَّ بالمسلمين ومن معهم في الشِّعْبِ.

وما إن تنفَّس الرَّسول ﷺ والمسلمون من الشِّدَّة التي لاقوها حتَّى أصيب الرَّسولُ ﷺ بوفاة زوجته خديجة التي كانت له نِعْمَ العَوْنُ ونِعْمَ السَّنَدُ؛ حيث آزَرَتْهُ وَوَاسَتْهُ بنفسها ومالها، وَثَبَّتَتْ مِنْ نَفْسِهِ، وَهَوَّنَتْ عليه ما يُلاقِي مِنْ قَوْمِهِ في سبيل دعوتهم إلى الله.

وما كاد الجُرْحُ يندمل من أَثَرِ موت خديجة حتَّى تُوُفِّيَ أبو طالب عَمُّ النَّبيِّ ﷺ الذي كان يُدَافِعُ ويُنَاضِلُ دُونَه ﷺ وقد حَزِنَ رسولُ الله ﷺ لِمَوْتِ أبي طالبٍ حُزْنًا شَدِيدًا؛ لأنَّه كان الحِصْنَ الذي تحتمي به الدَّعْوَةُ من هَجَمَاتِ كُبَرَاءِ قريش وسُفَهَائِهَا.

واشتدَّ أذى قريش للنَّبيِّ ﷺ بعد موت أبي طالب.

رُوِيَ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**مَا نَالَتْ مِنِّي قُرَيْشٌ شَيْئًا أَكْرَهُهُ حَتَّى مَاتَ أَبُو طَالِبٍ**». وذلك أنَّهم تجرءوا عليه، حتَّى نَثَرَ بعضُهمُ التُّرَابَ على رأسه.

وعن ابن مسعودٍ قال: «بينما رسولُ الله- صلى الله عليه وسلم- يُصَلِّي عند البيت وأبو جهلٍ وأصحابُه جلوسٌ، وقد نُحِرَتْ جزورٌ بالأمس، فقال أبو جهل: أيُّكم

يَقُومُ إلى سلا جَزُورِ بني فلان، فَيَضَعُهُ بين كَتِفَيْ محمَّد- عليه الصلاة والسلام- إذا سجد؟ فانبعث أَشْقَى القَوْمِ فأخذه.

فلمَّا سَجَدَ النَّبيُّ ﷺ وَضَعَهُ بين كَتِفَيْهِ، فاستضحكوا، وجعل بعضُهم يَمِيلُ على بعضٍ، وأنا قائمٌ أَنْظُرُ، لو كانت لي مَنَعَةٌ طَرَحْتُهُ عن ظهره. والنَّبيُّ ﷺ ساجدٌ ما يَرْفَعُ رَأْسَهُ، حتَّى انطلق إنسانٌ فأخبر فاطمةَ فجاءت- وهي جويريَّة- (أي طفلةٌ صغيرةٌ) فَطَرَحَتْهُ عنه. ثمَّ أقبلت عليهم تشتمهم.

فلمَّا قضى رسول الله ﷺ صلاتَه رَفَعَ صَوْتَهُ ثمَّ دعا عليهم.

وكان إذا دعا، دعا ثلاث مرَّاتٍ، وإذا سأل، سأل ثلاثًا. ثمَّ قال: «**اللهم عليك بقريش**» ثلاثاً، فلمَّا سمعوا صوتَه، ذهب عنهم الضَّحِكُ، وخافوا دعوته.

- رحلته ﷺ إلى الطائف لدعوة أهله:

بَعْدَ أن بلغ إيذاءُ قريش وَصَدُّهَا عن دعوة النَّبيِّ ﷺ إلى هذا الحَدِّ فَكَّرَ النَّبيُّ ﷺ أن يَعْرِضَ دعوتَه على القبائل المجاورة؛ عَلَّه يَجِدُ فيها مَنْ يَقْبَلُ تلك

الدَّعوةَ ويَقُومُ بِنُصْرَتِهَا، فَقَرَّرَ النَّبيُّ ﷺ الذَّهابَ إلى الطَّائف.

ذهب رسول الله ﷺ إلى الطائف حيث تَقْطُنُ ثَقِيفٌ، وهي تبعد عن مكَّة نحو الخمسين ميلاً، سارها محمد ﷺ على قَدَمَيْهِ، جِيئةً وذهابًا، فلمَّا انتهى إليها، قصد إلى نَفَرٍ من رجالاتها الذين ينتهي إليهم أمرها ثمَّ علَّمهم في الإسلام، ودعاهم إلى الله، فردُّوه جميعًا ردًّا مُنْكَرًا، وأَغْلَظُوا له الجَوَابَ، وَمَكَثَ عشرةَ أيَّامٍ يتردَّد على منازلهم دُونَ جَدْوَى...

فلمَّا يَئِسَ الرَّسولُ- عليه الصَّلاة والسَّلام- مِنْ نَصْرِهِم إيَّاه، قال لهم: «**إذا أَبَيْتُم، فاكتموا عليَّ ذلك**». كراهيةَ أن يبلغ أهل مكَّة، فتزداد عداوتُهم وشماتتُهم، لكنَّ القومَ كانوا أَخَسَّ مِمَّا ينتظر، قالوا له: اخرج من بلدنا. وحرَّشوا عليه الصِّبْيَانَ والرِّعاعَ، فوقفوا له صَفَّيْنِ يَرْمُونَه بالحجارة، و«زيد بن حارثة» يُحَاوِلُ- عبثًا - الدِّفاعَ عنه، حتَّى شُجَّ في ذلك رأسُه.

وأصيب الرَّسولُ- عليه الصَّلاة والسَّلام- في أقدامه، فسالت منها الدِّماءُ واضطرَّه المطاردون أن يلجأ

إلى بستانٍ لعُتْبَةَ، وشَيْبَةَ، ابْنَيْ رَبِيعَةَ، حيث جلس في ظِلِّ كَرْمَةٍ يلتمس الرَّاحة والأمن، ودعا ربه:

«اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي على النَّاس.. أنت أرحم الرَّاحمين، أنت ربُّ المستضعفين وأنت ربِّي.. إلى مَنْ تَكِلُنِي؟ إلى بعيدٍ يتجهَّمُنِي، أم إلى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي؟ إن لم يَكُنْ بك غَضَبٌ عَلَيَّ فلا أبالي، غير أنَّ عافيتَك هي أوسع لي.. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظُّلُمَاتُ، وصلح عليه أمرُ الدُّنيا والآخرة، أن يَحِلَّ عَلَيَّ غضبُك، أو ينزل بي سَخَطُكَ، لك العُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بك...».

وقرَّر رسولُ الله ﷺ الرُّجوعَ إلى بلده، ولكن كيف يرجع إليهم رسول الله ﷺ وقد آذَوْهُ وصدُّوه؟ تحمَّل النَّبيُّ ﷺ تَعَنُّتَ قومه إزاءَه وتَجَهُّمَهم له، فلم يَكُنْ أمامه وَقْتَئِذٍ إلا الرُّجوع إلى موطنه؛ لِيُكَرِّرَ محاولاتِه في دعوة قومه إلى الله.

ويُرْوَى أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يَستَطِعِ الرُّجُوعَ إلى مكَّة، حَتَّى طَلَبَ مِنْ بَعْضِ سادتِها أن يَحْمِيَه من أذى

قومه، فَبَعَثَ إلى المُطْعَمِ بنِ عَدِيٍّ يَعْرِضُ عليه أن يُجِيرَه (أي يَحْمِيهِ) حتَّى يُبَلِّغَ رسالةَ رَبِّهِ! فَقَبِلَ «المُطْعَم» واستنهض أبناءَه، فَحَمِلُوا أسلحتَهم، ووقفوا عند أركان البيت الحرام، وَتَسَنَّمَ "المُطْعَمُ" ناقتَه، ثمَّ نادى: يا معشر قريش، قد أَجَرْتُ محمَّدًا- عليه الصلاة والسلام- فلا يَهْجُهُ أحدٌ منكم! فلمَّا انتهى رسولُ الله ﷺ إلى الكعبة صلَّى ركعتين، ثم انصرف إلى بيته. و«مُطْعَمٌ» وأهلُه يحرسونه بأسلحتهم.

وهنا حيث بلغ الضِّيقُ والحُزْنُ مداه بالنَّبيِّ ﷺ يأتي تفريج الله تعالى عن نبيِّه ومكافأتُه له على صبره في سبيل دعوته، فتأتي رحلةُ الإسراء والمعراج تَسْرِيَةً وتسليةً للنَّبيِّ ﷺ عمَّا يلاقيه في سبيل هذه الدَّعْوَةِ من أذى.

٣

إلى بيت المقدس...

أخذ رسول الله ﷺ مضجعه متوجِّهًا إلى ربِّه كعادته، مستسلمًا إليه ومُفَوِّضًا أمرَه كلَّه إليه، حيث كان من عادته ﷺ ألا ينام حتَّى يقول هذه الكلمات: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لا مَلْجَأَ وَلا مَنْجَا مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ**».

يقول تلك الكلمات فيمتلىء صدرُه رضا وطمأنينةً وثقةً بالله وتوكُّلاً عليه، فيعلم أنَّ الله سيجعل له من أمره مخرجاً، وأنَّه سيُفْتَحُ بينه وبين قومه، وأنَّه ناصرٌ دينَه لا محالة.

وفي هذه الليلة كانت الهموم والأحزان قد بلغت غايتها برسول الله ﷺ بعد تولِّي تلك الخطوب والحوادث المريرة التي أَلَمَّتْ به في تلك الايام الأخيرة قبل رحلة الإسراء، ولكنَّه رغم ذلك كلِّه يعلم أنَّ ذلك هو علامة النصرِ، وآيَةُ الفَرَجِ.

قال تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ القَوْمِ المُجْرِمِينَ﴾ (يوسف: ١١٠).

في هذه اللَّيْلَةِ وبينما رسول الله ﷺ نائمٌ في بيته بمكَّة، فُرِجَ سقفُ البيت، ونزل جبريلُ- عليه السلام- وأخذ رسول الله ﷺ من بيته إلى المسجد الحرام؛ حيث يتمُّ تَجْهِيزُ النَّبيِّ ﷺ لهذه الرِّحلة النُّورانيَّة المبارَكة، التي أراد الله تعالى بها تسليةَ نَبِيِّهِ ﷺ وتفريجَ هَمِّهِ وكَرْبِهِ، وإطلاعَه على آياته العِظَامِ؛ حتَّى يُهَوِّنَ في عَيْنَيْهِ ما يلاقي من عِنَادِ قَوْمِهِ ولجاجتهم.

إنَّ هذه الرحلة لا يطيقها أيُّ أحدٍ؛ لأنَّها انتقالٌ من هذا العالم الأرضيِّ إلى عالم النُّور في السَّموات العُلا، إذًا فلابدَّ من تهيئة محمَّدٍ ﷺ لهذه الرِّحلة وتخليصِه ممَّا قد يَعْلَقُ بالبَشَرِ من أدران الأرض، لذا فقد أُجْرِيَتْ للنَّبيِّ ﷺ في الحَرَمِ الشَّريف عمليَّتان: الأولى عمليَّة تطهير؛ حيث شقَّ جبريلُ صدرَه الشَّريفَ ﷺ وغَسَلَهُ من ماءِ زمزم الطَّاهر المبارَك.

والعمليَّة الثانية: هي عملية زرع الحكمة والإيمان في قلب الحبيب محمَّد ﷺ؛ حتَّى يكون مؤهَّلاً لفقه أسرار ذلك العالَم الآخَر؛ لقد جاء جبريل عليه السَّلام بطستٍ من ذهب ممتلىء حكمة وإيمانًا، فأفرغها في صدر محمَّد ﷺ ثمَّ أطبق صدره الشَّريف ﷺ.

وبهذا تمَّ تجهيزُ محمَّد ﷺ وإعدادُه لتلك الرِّحلة، وصار محمَّدٌ ﷺ قادرًا على اجتياز أجواء الفضاء، لا يتأثَّر جسده بتلك السُّرعة الخارقة التي ينبغي أن تُقْطَعَ بها تلك الرِّحلة، ولا يتأثَّر قلبه برؤية تلك المشاهد التي لم يَعْتَدْهَا من قَبْلُ؛ حتَّى لا يزيغ البصر ولا يطغى.

وهنا أتى جبريل- عليه السلام- بدابَّةٍ بيضاءَ يُقَالُ لها البُرَاقُ، وكأنَّها مشتقَّةٌ من البَرْقِ في ضوئه ولمعانه، أو كأنَّه له سرعة البرق والضوء في سيره، أو لعلَّ ذلك إشارةٌ إلى أنَّ له قوَّة برقيَّة كهربائيَّة لا يعلمها إلا الله، والله أعلم.

وهذا البُراق دابَّةٌ أعظم من الحمار وأقلُّ من البَغْلِ، ولكنَّه ذو سرعةٍ خارقةٍ؛ فهو يضع حافره عند منتصف طرفه؛ فخطوتُه الواحدةُ مدُّ البصر.

ركب النَّبيُّ ﷺ تلك الدَّابَّةَ، فأخذته تجوب به أجواء الفضاء تقطع البلدة تلو البلدة في طرفة عين، وما هي إلا سويعة[٢] يسيرة حتى أتى النبي ﷺ بيت المقدس وجبريل- عليه السلام- بِرُفْقَتِهِ، فنزل النبيُّ ﷺ من على دابَّته، وربطها بالحلقة التي كان الأنبياء قبله- صلوات الله وسلامه عليهم- جميعًا يربطون بها دوابَّهم.

ومن هنا يستشعر المسلم الوحدةَ التامَّةَ بين هؤلاء النَّبيِّين- صلواتُ الله وسلامُه عليهم- إنه دينٌ واحدٌ، وهدًى واحدٌ؛ فهذا محمَّد ﷺ سيِّد الأوَّلين والآخرين يحرص على التَّأسِّي والاقتداء بالنَّبيِّين قبله في كلِّ شيءٍ، حتَّى يربط دابَّتَه في الموضع الذي ربطوا به.

وممَّا يؤكِّدُ وَحْدَةَ الدِّين بين هؤلاء الأنبياء والرُّسُلِ جميعًا اجتماعُهم جميعًا خلف النَّبيِّ ﷺ وصلاتُه بهم إمامًا؛ إشارةً إلى أنَّ دينَ الأنبياء واحدٌ، وأنَّ محمَّدًا ﷺ إمامُهم، وأنَّ شريعتَه هي الشَّريعة الخاتمة.

---

(٢) تصغير ساعة.

ويدخل رسول الله ﷺ المسجد الأقصى، فيصلِّي ركعتين حقًّا لله تعالى، وحقًّا لهذا المسجد الشَّريف، وبعد أن صلَّى النَّبيُّ ﷺ أتاه جبريل- عليه السلام- بإناءٍ من خمرٍ وإناءٍ من لبنٍ؛ ليتخيَّر رسول الله ﷺ منهما أعجبَه وأحبَّه إليه، ولا إثم عليه هنا فيما يختار؛ فَرَبُّهُ قد أباحهما له في هذا الموضع، ولكنَّ رسولَ الله ﷺ يختار اللَّبن؛ لأنَّه على الفِطْرَةِ التي خَلَقَهَا اللهُ تعالى، أمَّا الخمر فهو كَرْمٌ (عنب) أو تمرٌ أو غيرُه من الفواكه التي أفسدها النَّاس وغيَّروا فطرة الله تعالى فيها، ومن ثَمَّ قال جبريل للنَّبيِّ ﷺ: اخترتَ الفِطْرَةَ.

إنَّ هذا الاختيارَ من النَّبيِّ ﷺ رَمْزٌ لاتِّباع الفِطْرَةِ التي هي دينُ الله تعالى الَّذي فطر النَّاس عليه، وأَمَرَ باتِّباعه وعَدَمِ تغييره وتبديله، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم: ٣٠).

وهنا تبدأ رحلة المعراج برسول الله ﷺ إلى السموات العُلا؛ ليريه الله تعالى من آياته الكبرى، وليطلعَه على أسرار العالم القدسيِّ الآخَر.

٤

رحلة المعراج

صَعَدَ ﷺ إلى السَّماء الدُّنيا، وجبريل- عليه السلام- بِصُحْبَتِهِ، ولم تكن أبواب السَّماء مفتَّحةً؛ لأنَّها لا تفتح إلا بإذن؛ فملكوت السَّموات محفوظٌ لا يَصِلُ إليه أحدٌ إلا بإذنٍ من الله تعالى؛ ﴿ يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾. (الرحمن: ٣٣).

وهنا استأذن جبريل- عليه السلام- واستفتح[٣].

فقيل له: من أنت؟

قال: جبريل.

قيل: ومن معك؟

قال: محمد.

قيل: وقد بُعث إليه؟

قال: بُعث إليه.

---

(٣) أي: طلب فتح الباب.

وحينئذٍ فُتِحَ بابُ السَّماء الدُّنيا، وإذا آدمُ- عليه السلام- في استقبال رسول الله ﷺ يرحِّب به، ويدعو له بالخير.

وهنا يَرَى النَّبيُّ ﷺ آدم- عليه السلام- ذلك النَّبيَّ الوالِدَ، الذي اجتمعت فيه النُّبُوَّةُ والأُبُوَّةُ معًا، فيعلم النَّبيُّ ﷺ اقترانَ النُّبُوَّةَ بالأُبُوَّةِ، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ والدٌ لقومه، يعلمهم ويصبر عليهم ويرحمهم ويحلم بهم.

يتعلم النبي ﷺ هذا الدرس جيدًا، ومن ثمَّ فهو حينما يرجع إلى قومه ويشتدُّ إيذاؤهم له، لا يملك إلا أن يدعو الله لهم قائلاً: «**اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي؛ فَإِنَّهم لا يَعْلَمُون**». ويقول النبيُّ ﷺ لأصحابه: «**إِنَّمَا أنا لكم بِمَنْزِلَةِ الوالد**» ثمَّ يصعد النَّبيُّ ﷺ إلى السَّماء الثَّانية، فاستفتح جبريل.

فقيل: من أنت؟

قال: جبريل.

قيل: ومن معك؟

قال: محمد.

قيل: وقد بُعث إليه؟

قال: بُعث إليه.

فيُفْتَحُ بابُ السَّماءِ الثَّانيةِ، وإذا ابنا الخالةِ عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا- عليهما السلام- في استقبال النَّبيِّ ﷺ فرَحَّبَا به، وَدَعَوَا له بخير.

وهنا يتذكَّر النبيُّ ﷺ ما حدث لعيسى- عليه السلام- من إيذاء اليهود له- عليهم لعائن الله- وَمِنْ تكذيبهم إيَّاه، ومعاندتهم له، ومحاولتهم لقتله أشنع قتلة، حيث أخذوا شبيهًا له فقتلوه وصلبوه ودقوه بالمسامير وضربوه بالسعف والنِّعال، ظنًّا منهم أنه عيسى- عليه السلام- ولكنَّ اللهَ تعالى قد تكفَّل بحفظ نبيِّه من الأذى، حيث رفعه إليه، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّهَ لهم.

وحينئذ يعلم النَّبيُّ ﷺ أنَّ الله سوف ينصره ويمنعه لا محالة.

ويتذكر النبي ﷺ ما حدث ليحيى بن زكريا عليه السلام، وكيف أنه قد أُهْدِيَتْ رأسُه لبغيٍّ من بغايا بني إسرائيل، كلُّ ذلك يَلْقَاهُ في سبيل دعوته إلى الله تعالى، فيُخَفِّف ذلك عن النَّبيِّ ﷺ ما لَقِيَهُ من إيذاء قومه له.

ثـمَّ صُـعِدَ بـالنَّبيِّ ﷺ بعـد ذلـك إلـى السَّماء الثالثة، ويستفتح جبريل كعادته في كلِّ سماء، ويُفْتَحُ له، ويجد النبي ﷺ في استقباله يوسف- عليه السلام- وذا هـو قـد أعطـي شـطرَ الحُـسْنِ- أي نِـصْفَ الجَمَـال- فيرحِّب بالنَّبيِّ ﷺ ويدعو له بالخير.

وهنـا يتـذكر النبـي ﷺ مـا كـان بـين يوسـف- عليه السلام- وإخوته، وكيف آذوه وتآمروا عليه وكادوا له، وكيف صبر يوسف- عليه السلام- على أذاهم، ثمَّ صبر على العبوديَّة، ثمَّ على السِّجْنِ في مصر عند العزيـز، وكيـف صـبر وثبـت إزاءَ مـا لَقِـيَ مـن الفِـتَنِ والمِحَنِ، ثمَّ كيف كانت عاقبته بعد ذلك من النصر والتمكين في الأرض.

وهنـا يعلـم النبـي ﷺ أن هـذه عاقبـة الـصبر وعاقبة الثبات وعاقبة التقوى. ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنِينَ ﴾. (يوسف: ٩٠).

ثـم يـصعد النبـي ﷺ إلـى الـسماء الرابعـة، فيستفتح جبريل- عليه السلام- فيُفتح له هو ومحمَّد ﷺ فيجد النبي ﷺ في استقباله إدريس- عليه السلام- في

السَّماء الرابعة، قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِياً﴾ (مريم: ٥٧) فيتذكر النبي ﷺ ذلك ويعلم أن في ذلك بشارة من الله أنه سيُكْتَبُ له العُلُوُّ والرِّفْعَةُ في الدُّنيا والآخرة.

ثم يصعد جبريل والنبي ﷺ إلى السماء الخامسة، ليجد في استقباله هارون- عليه السلام- فيرحِّب به، ويدعو له بخير.

ويتذكَّر النَّبيُّ ﷺ ما كان بين هارون وقومه، وكيف أنَّهم قد عادوه وآذوه، ثمَّ رجعوا إلى محبَّته بعد ذلك، فيعلم أنَّ ذلك كائنٌ مع قومه كذلك، ثمَّ يصعد النَّبيُّ ﷺ وجبريل إلى السَّماء السَّادسة، فإذا هو بموسى- عليه السلام- يُرَحِّبُ به، ويدعو له بالخير.

وهنا يتذكَّر النبي ﷺ جهاد موسى- عليه السلام- ودعوته فرعون إلى الله تعالى مع جبروته وطغيانه، وكيف أنَّ الله تعالى قد نصره على فرعون وقومه، ومَكَّنَ له في الأرض هو وقومه من بني إسرائيل، وفضَّلهم في زمانهم على العالمين.

يتذكَّر النبيُّ ﷺ ذلك كله، فيعلم أن نصر الله قريب.

ثم يصعد النبي ﷺ إلى السماء السابعة، ويستفتح جبريل كعادته في كل سماء، فقيل له: من هذا؟

قال: جبريل.

قيل: ومن معك؟

قال: محمد.

قيل: وقد بُعث إليه؟

قال: قد بُعث إليه.

ففتح لهما، فإذا إبراهيم- عليه السلام- مسندًا ظهره إلى البيت المعمور، وهذا البيت المعمور في السَّماء السابعة محاذٍ للكعبة المشرفة في الأرض، يدخله كلَّ يومٍ سبعون ألفَ مَلَكٍ لا يعودون إليه، بل يأتي غيرهم هكذا كلَّ يوم إلى يوم القيامة.

فسبحان الله! كم عدد ملائكة الله تعالى الذين يحجُّون هذا البيت؟ وكيف أنَّ الله مُسْتَغْنٍ عنَّا وعن عبادتنا؟ وأنَّ هذه العبادة لا يعود نفعُها إلا علينا نحن، ولا ينتفع سبحانه منها بشيء فهو غني عنها.

وهنا يلقى النبي ﷺ إبراهيم الخليل حبيب الرحمن، الذي امتثل أمر الله تعالى حيث أمره أن يذبح ولدَه إسماعيل، وامتثل أمرَ الله تعالى من قبل؛ حيث أمره أن يترك إسماعيل الرَّضيعَ وأمَّه في أرض البيت الحرام، وهي حينئذ أرض قحلاء لا زرع فيها ولا ماء، ولا أنيس ولا جليس.

ثم امتثل بعد ذلك أمر الله حينما أمره ببناء الكعبة هو وإسماعيل، فبنياها وهما يدعوان الله تعالى أن يتقبَّل منهما قائلَيْن: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾. (البقرة: ١٢٧).

يتذكر النبي ﷺ ذلك كله فيعلم أن الله ناصرٌ دينَه ونبيَّه لا محالة، فيزداد إيمانًا وثباتًا في تبليغ هذا الدين.

ثم ذهب بالنبي ﷺ بعد ذلك إلى سِدْرَةِ المُنْتَهَى(٤)، فنظر إليها النبي ﷺ فإذا وَرَقُهَا كآذان الفِيَلَةِ، وإذا ثمرُها كالقِلال(٥).

---

(٤) سدرة المنتهى: السدر: شجر النبق، وسدرة المنتهى هي التي ينتهي إليها كل ما يصعد من الأرض إلى السماء.

(٥) القلال: جمع قلة، وهي الجَرَّة العظيمة.

ولكن سرعانَ ما تغيَّرت تلك السِّدرةُ بإذن الله تعالى، وكأنها قد تزيَّنت استعدادًا للقاء محمد ﷺ، فصارت على حال بديعة من الزِّينة والجمال لا يستطيع أحدٌ أن يَصِفَهَا من حُسْنِهَا.

وحينئذٍ كان لقاء الحبيب بحبيبه.

كان لقاءُ الرَّسولِ الكريم محمَّدٍ ﷺ بِمَلِكِ الملوكِ جَلَّ جلالُه، وفي هذا اللِّقاء العظيم، في ذلك المكان العَلِيِّ، أوحى الله تعالى إلى نَبِيِّهِ أمر الصَّلاة؛ ليدلَّ على عُلُوِّ مكانتها عند الله تعالى، وحتى تبقى عاليةً غاليةً في نفس المؤمن، وحتى تكون بمثابة المعراج الذي يَعْرُجُ به ليحلِّق في ملكوت السَّموات، حيث يقف ماثلاً خاشعًا بين يدي الله تعالى كلَّ يومٍ وليلةٍ خمسَ مرَّاتٍ، وهنا افترض الله تعالى على نبيِّه ﷺ وعلى أمَّته خمسين صلاةً في كلِّ يومٍ وليلةٍ.

ثمَّ نزل النَّبيُّ ﷺ فَلَقِيَ موسى- عليه السلام- فسأله موسى عليه السلام: ما فَرَضَ ربُّكَ على أمَّتك؟

قال النبي ﷺ: «**خمسين صلاة**».

فقال موسى عليه السلام: ارجع إلى ربِّك فاسأله التَّخفيفَ؛ فإنَّ أُمَّتَك لا يُطِيقُون ذلك؛ فإنِّي قد جَرَّبْتُ بني إسرائيل من قبل، وأمرتُهم بأخفَّ من ذلك فضيَّعوه ولم يقوموا به.

فرجع النبي ﷺ إلى ربِّه، فقال: «**يا رَبُّ خَفِّفْ عن أُمَّتي!**»

فخفَّف الله تعالى عن الأمَّة خمسَ صلواتٍ.

ثمَّ رجع النَّبيُّ ﷺ إلى موسى وأخبره بذلك، فأمره موسى- عليه السلام- أن يرجع إلى ربِّه مَرَّةً أخرى فيسأله التخفيف.

وظلَّ النَّبيُّ ﷺ يتردَّد بين ربِّه- سبحانه وتعالى- وبين موسى- عليه السلام- حتى قال الله تعالى له:

«يا محمد! إنهم خمسُ صلواتٍ لكلِّ يومٍ وليلة، لكلِّ صلاةٍ عشرٌ، فتلك خمسونِ صلاة! ومَنْ هَمَّ بحسنةٍ فلم يعملها كُتِبَتْ له حسنةٌ، فإن عَمِلَهَا كُتِبَتْ له عشراً، ومن هَمَّ بسيِّئةٍ فلم يعملها لم تُكْتَبْ شيئًا، فإن عملها كتبت سيِّئةً واحدةً».

فنزل النبي ﷺ إلى موسى فأخبره.

فقال: ارجع إلى ربِّك فاسأله التخفيف.

فقال النبي ﷺ: «**قَدْ رَجَعْتُ إلى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ**».

وهكذا فُرِضَتْ تلك الصَّلاة في السَّماء لكي تبقى منزلتها عاليةً في السماء!

حقًّا إنَّها لَعِمَادُ الدِّين، مَنْ أقامها فقد أقام الدِّينَ، ومن هَدَمَهَا فقد هدم الدِّين!

إنَّها الحدُّ الفاصل بين الإيمان والكفر.

قال رسول الله ﷺ «**بَيْنَ المَرْءِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ والكُفْرِ تَرْكُ الصَّلاة**» (٦).

وقال رسول الله ﷺ: «**العَهْدُ الذي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ**»(٧).

وقال رسول الله ﷺ: «**خَمْسُ صلواتٍ كَتَبَهُنَّ اللهُ على العباد، فمن جاء بهنَّ، لم يُضَيِّعْ منهنَّ شيئًا استخفافًا بحقِّهنَّ، كان له عند الله عهدٌ أن يُدْخِلَهُ**

---

(٦) الحديث أخرجه مسلم في "الإيمان"، (ح ٨٢).

(٧) الحديث صحيح، أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم عن بريدة، وانظر «صحيح الجامع» (ح ٤١٤٣).

الجَنَّةَ، ومن لم يأتِ بهنَّ فليس له عند الله عهدٌ، إن شاء عذَّبه، وإن شاء أدخله الجنَّة».

الآيات التي رآها رسول الله ﷺ

لقد رأى رسولُ الله ﷺ في رحلته آياتٍ كثيرةً عظيمةً، أراد الله تعالى أن يُسَرِّي بها عن نبيِّه، ويُرِيَه من عظيم آياته، فيزداد إيمانُه ويَقِينُه، ويثبتَ في طريق دعوته إلى الله تعالى، ويعلم أنَّ الأمر كله لله، وأنَّ الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأنَّه ناصرٌ دينَه لا مَحَالَةَ.

لقد رأى النَّبيُّ ﷺ جبريل- عليه السلام- على هيئته العظيمة التي خلقه الله تعالى عليها، رآه في حلة من رفرف[٨] قد ملأ ما بين السَّمَاءِ والأرض، وقد نشر أجنحته سِتَّمِائَةِ جناحٍ، يتناثر منها تهاويل[٩] الدُّرِّ بألوانه المختلفة الزَّاهية.

ورأى النبي ﷺ بعض جزاءِ أمَّتِهِ في الجنة، وعُرِضَتْ عَلَيْهِ الجَنَّةُ، فإذا هي قِبَابٌ من اللُّؤْلُؤِ، وإذا تُرَابُها المِسْكُ، ورأى النَّبيُّ ﷺ نَهْرًا حافَّتاه قِبَابُ اللؤلؤ، وتُرْبَتُهُ مِسْكٌ أَذْفَرُ، وماؤه أَشَدُّ بياضًا من اللَّبَنِ، وأحلى

---

(٨) الرفرف: هو الفراش الرقيق المتلألئ.

(٩) التهاويل هي الأشياء المختلفة الألوان التي تهول الإنسان وتحيره.

من العسل، فسأل النبي ﷺ جبريل، فقال: «**يا جبريل: ما هذا؟**»

قال: هو الكَوْثَرُ الذي أعطاكه الله تبارك وتعالى!

لقد رأى النَّبيُّ ﷺ أرواحَ أصحاب الجنَّة عن يمين آدم- عليه السلام- وأرواح أصحاب النار عن يساره.

ورأى حالَ آدم- عليه السلام- إزاءَ ما عليه ذُرِّيَّتُه من التَّناقض والاختلاف في السَّعي والأعمال، فكان إذا نظر قِبَلَ اليمين ناحيةَ أصحاب الجنَّة، ضَحِكَ وفَرِحَ لِمَا هم فيه من النَّعيم، وإذا نظر قِبَلَ اليَسَار ناحية أصحاب النَّار بكى وحزن لما نال أبناءه وذُرِّيَّتَه من العذاب الأليم جزاء عصيانهم لربِّ العالمين.

ولقد حانت الصَّلاة، فصلى النبي ﷺ بالأنبياء إمامًا، فلمَّا فرغ من الصَّلاة قال له قائلٌ: يا محمد هذا مالكٌ خازنُ النَّار فَسَلِّمْ عليه. فالتفت إليه النبي ﷺ فبدأه مالكٌ بالسَّلام.

إنَّ هذه تذكرةٌ من الله تعالى لأمَّة محمَّدٍ ﷺ وتذكرةٌ من مالك- عليه السلام- لأمَّة محمَّدٍ ﷺ ألاَّ ينسوا تلك النَّار التي أعدَّها الله تعالى للكافرين والعاصين.

وتعرَّض علي النبي ﷺ في تلك الرحلة المباركة أربعةُ أنهارٍ، نهران باطنان، ونهران ظاهران، ويسأل النبي ﷺ جبريل:

ما هذان يا جبريل؟

قال: أما الباطنان فنهران في الجنَّة، وأمَّا الظاهران فالنِّيلُ والفُرَاتُ!

سبحان الله! إنَّ هذين النَّهرَيْنِ الظَّاهرين بمائهما العذب الزُّلال، جعلهما الله تعالى تذكرةً بأنهار الجنَّة؛ فإنَّها أشدُّ حلاوةً وأشدُّ صفاءً، وأكثر عذوبةً من النِّيل والفرات.

فليهن أهل النيل والفرات نهران أصلهما من الجنة!

أعظم الآيات
لقد رأى من آيات ربه الكبرى

إنَّ كُبْرَى الآيات وأعظمُها هي رؤيةُ محمَّدٍ ﷺ لربِّه؛ فقد رأى ربَّه في تلك الرحلة المباركة، ولا عجب في ذلك سواء قلنا رآه بقلبه، أو رآه بعينيه.

فلا عجب أن يُخْتَصَّ محمَّدٌ ﷺ بتعجيل رؤيته لربِّه في الدنيا إكرامًا له، وجزاءً لعبوديَّته وشوقه لرؤية معبوده ومحبوبه الأعظم.

فإذا كانت رؤيةُ الله تعالى حقًّا، حيث أخبر الحبيبُ محمَّدٌ ﷺ أمَّتَه أنَّهم سَيَرَوْنَ ربَّهم في الآخرة عيانًا لا يُضَامُون في رؤيته كما لا يُضَامُونَ في رؤية القمر ليلة التَّمام- إذا كانت رؤية الله تعالى واقعة فما المانع أن يُعَجِّلَها اللهُ لحبيبه وقد أضناه الشوق لرؤية محبوبه؟!

العودة....

عاد النبيُّ ﷺ من تلك الرحلة المباركة، وقد امتلأ صدره إيمانًا وحكمة وحلمًا وصبرًا، لقد انشرح صدره أيَّما انشراحٍ، وانجلت عنه الهموم والأحزان. لقد امتلأ قلبُه ثقةً بمولاه ويقينًا بنصره وعونه.

لقد هان في عينه ﷺ كلُّ أذًى لاقاه من قومه!

هان عليه تكذيبُهم وعنادُهم!

هان عليه تمالؤهم عليه ومكرهم به!

وكيف لا وقد رأى قدرةَ ذي المُلْكِ والملكوت، والقهر والجبروت، جبَّار السَّموات والأرضين!

عاد النَّبيُّ ﷺ إلى قريش، ولابدَّ أن يبلِّغَهم النَّبيُّ ﷺ ما كان، فما كان ليكتم من أمر تلك الرِّسالة شيئًا؛ لأنَّه مستأمَنٌ عليها مأمورٌ بإبلاغها كلِّها للناس كافَّةً ﴿ وَقُلِ الحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾. (الكهف: ٢٩).

وتفكَّر النبيُّ ﷺ في أنَّ قومَه سوف يكذِّبون إذا ما أخبرهم بما رأى، فاشتدَّ عليه الأمرُ، وقعد معتزلاً حزينًا.

فمرَّ به عدوُّ الله أبو جهل، فجاء حتى جلس إليه، فقال للنَّبيِّ ﷺ كالمستهزئ: هل كان من شيءٍ؟

فقال رسول الله ﷺ: **نعم!**

قال أبو جهل: وما هو؟

قال: **إنِّي أُسرِيَ بي اللَّيلة.**

قال: إلى أين؟

قال: **إلى بيت المقدس.**

قال: ثم أصبحتَ بين ظهرانينا؟!

قال: **نعم.**

فتصنَّع عدوُّ الله أنه لا يكذِّبه؛ خوفًا من أن يكتم النَّبيُّ ﷺ الحديثَ ولا يُحَدِّثَ به القوم، وأراد أن يسخر القومُ منه ويُضْحِكَهم من أَمْرِهِ وكلامه.

فقال له: أرأيتَ إن دعوتُ قومَك، أَتُحَدِّثُهم بما حدَّثْتَنِي؟

قال رسول الله ﷺ : **نعم.**

قال: هيا معشر بني كعب بن لؤي هلمُّوا.

فانفضَّت إليه المجالس، وجاءوا حتَّى جلسوا إليهما.

قال: حَدِّثْ قومَك بما حدَّثتني.

فقال رسول الله ﷺ: **إنِّي أُسرِيَ بِيَ اللَّيْلَةَ.**

قالوا: إلى أين؟

قال: **إلى بيت المقدس.**

قالوا: ثمَّ أصبحت بين ظهرانينا؟!

قال: **نعم!**

فأصبح القومُ بين مُصَفِّقٍ، وبين واضع يده على رأسه متعجِّبًا للكذب بزعمهم.

قالوا: وهل تستطيع أن تصف لنا المسجد؟

وكان في القوم مَنْ قد سافر إلى ذلك البلد، ورأى المسجد، قال رسول الله ﷺ: **فذهبت أَصِفُ، فما زِلْتُ أصف حتى التبس عليَّ بعضُ الوصف.**

قال رسول الله ﷺ: **فَجِيءَ بالمسجد وأنا أنظر، حتَّى وُضِعَ قريبًا من دار عقيل، فَوَصَفْتُه، وأنا أَنْظُرُ إليه.**

فلمَّا سمع القومُ هذا الوصف من رسول الله ﷺ قالوا: أمَّا الوصفُ فوالله لقد أصاب.

لقد سلَّموا للنبيِّ ﷺ أنَّه قد أصاب في وصف المسجد الأقصى، ولكن هيهات هيهات أن يُسَلِّموا له أنَّه قد صَدَقَ فيما أخبر به عن رحلته إلى ربِّه، وهيهات هيهات أن يؤمنوا بخبر السَّماء!

وصدق الله تعالى إذ يقول عن هؤلاء المشركين الجاحدين: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٥) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (٦) وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (١٠)

قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ (١١)﴾. (سورة الأنعام – ٤: ١١).

أمَّا موقف المسلمين إزاءَ هذا الحَدَثِ الجليل، فقد رَوَى البيهقيُّ عن عائشة قالت: لمَّا أُسْرِيَ بالنَّبيِّ ﷺ أصبح يحدِّث الناس بذلك، فارتدَّ ناسٌ مِمَّنْ كانوا آمنوا به وصدَّقوه.

هذا بلا شكٍّ هو موقف ضعاف الإيمان.. أمَّا موقف الصَّحابة– رضوانُ الله عليهم– فيتجلَّى في قول الصِّدِّيق رضي الله عنه: «واللهِ لئن كان قد قاله لقد صدق.. إنَّه ليخبرني أنَّ الخبر يأتيه من السماء إلى الأرض في ساعةٍ من ليلٍ أو نهارٍ، فأصدِّقه، فهذا أبعد ممَّا تعجبون منه».

كان هذا هو موقف الصِّدِّيقِ– رضي الله عنه– ولذا استحقَّ بحقٍّ أن يسمِّيَه الرَّسول ﷺ صِدِّيقًا، واقتدى بأبي بكر– رضي الله عنه– في ذلك كثيرٌ من المسلمين، فصدَّقوا ما أخبر به الرَّسولُ ﷺ؛ لأنَّهم عَرَضُوه على قواعد الإيمان، فوجدوه لا يتناقض معها في شيءٍ، فاللهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، لا يتعجَّزه شيء في الأرض ولا في السماء، فكيف يستحيل عليه أن

يُسْرَيَ برسوله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في ليلة، أو أن يعرج به فيها إلى سمواته العلا؟!

وتبقى لنا ذكرى هذه الحادثة العظيمة لنستخلص منها الدروس والعِبَر، ولنتذكر مكانة النبي ﷺ عند ربه، فتعظم مكانتُه في نفوسنا، فتتحرك الجوارح باتِّباعه ﷺ ولنتذكَّر المسجدَ الأقصى العَطِرَ المبارَك، كما تعبث أيديهم الملوَّثة بدماء الأبرياء من المسلمين بِأُسُسِهِ وقواعِدِه، فلا زالوا يحفرون في قواعد المسجد بحثًا عن هيكلهم المزعوم الذين ينشدون به مُلْكًا ضائعًا، ولعلَّها تكون بداية الخلاص، فمن يدري لعلهم يحفرون قبورَهم بأيديهم؛ فلقد قربت النِّهاية، وظهرت أكثرُ العلامات، فارتقبوا إنَّا مرتقبون!!

مسائل
تتعلق بالإسراء والمعراج

المسألة الأولى
حقيقة الإسراء والمعراج

اختُلِفَ في المعراج والإسراء، هل كانا في ليلةٍ واحدةٍ أم لا؟ وأيُّهما كان قبل الآخر؟ وهل كان في اليقظة أو المنام أو بعضه في اليقظة وبعضه في المنام؟ وهل كان مرَّة أو مرَّتين أو مرات؟

المذهب الأول:

ذهب الجمهور من المفسِّرين والمُحَدِّثين والفقهاء والمتكلِّمين إلى أنَّهما وقعا في ليلةٍ واحدةٍ في اليقظة، وتواردت عليه ظواهرُ الأخبار الصَّحيحة، وقولُه تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾؛ لأنَّ التَّسبيحَ إنَّما يكون عند الأمور العِظَامِ، ولو كان منامًا لم يكن فيه كبيرُ شيءٍ، ولما بادرت قريش إلى إنكاره، ولا ارتدَّ جماعةٌ من ضعفاء مَنْ أسلم، ولأنَّ العبد عبارةٌ عن مجموع الرُّوح والجسد، ولو كان منامًا لم يَقُلْ: «بِعَبْدِهِ» بل بروح عبده، وليس في العقل ما يُحِيلُ ذلك أيضًا، ولأنَّه حُمِلَ على البُراق والرُّوحُ لا تُحْمَلُ، وإنَّما يُحْمَلُ البَدَنُ.

ويؤيِّدُه ما أخرجه أبو نعيم في الدَّلائل، من حديث محمَّد بن كعب القرظيِّ، في شأن أبي سفيان مع

هرقل، قال: وأبو سفيان يجهد أن يَحْقِرَ أمرَه ويُصْغِرَهُ عنده، قال: حتَّى ذكرتُ قولَه ليلةَ أُسْرِيَ به، فقلتُ: أيُّها الملك، ألاَّ أخبرك خبرًا تعرف أنه قد كذب؟ قال: وما هو؟ قلتُ: يزعم أنه خرج من أرضنا أرض الحرم فجاء إلى مسجد إيليا ورجع إلينا تلك الليلة قبل الصَّباح. وبِطْرِيقُ إيليا عند رأس قيصر، فقال بطريقُ إيليا: قد علمتُ تلك الليلة. فنظر قيصرُ وقال: ما علمتَ بها؟ قال: إني كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد، فلمَّا كان تلك الليلة أغلقتُ الأبواب كلَّها غيرَ بابٍ واحدٍ غَلَبَنِي، فاستعنتُ عليه عُمَّالي ومَنْ يحضرني كلَّهم، فعالجتُه، فغلبني، فلم نستطع أن نحرِّكه، كأنَّما نُزَاوِلُ به جبلاً، فدعوتُ إليه النجاجرة، فنظروا إليه فقالوا: إنَّ هذا بابٌ سَقَطَ عليه البُنْيَانُ ولا نستطيع أن نُحَرِّكَه حتَّى نُصْبِحَ فننظر من أين أتى. فرجعتُ وتركتُ البابين مفتوحين، فلمَّا غدوتُ عليهما فإذا الحجر الذي في زاوية المسجد مثقوبٌ، وإذا فيه أثرُ رَبْطِ الدَّابَّة، فقلتُ لأصحابي: ما حُبِسَ هذا الباب اللَّيلةَ إلا على نبيٍّ، وقد نبي وقد صلَّى الليلة في مسجدنا.

مذهب آخر:

وذهب آخرون إلى أنَّ ذلك كلَّه وقع مرَّتين، مرَّةً في المنام توطئةً وتمهيدًا وتسهيلاً عليه؛ كما كان بدء نبوَّته الرُّؤيا الصَّادقة؛ ليسهل عليه أمر النُّبُوَّة، ومرَّةً ثانيةً في اليَقَظَةِ. قالوا: وبذلك يجمع بين الأحاديث، وممَّن اختار هذا القولَ أبو نصر القشيريُّ، وابنُ العربيِّ والسهيليُّ.

فائدة عظيمة

فائدة عظيمة خَتَمَ بها الحافظُ أبو الفداء عمادُ الدِّين بن كثير أحاديثَ الإسراء والمعراج التي أوردها في كتابه (تفسير القرآن العظيم) عن ثلاثة عشر صحابيًّا، وهي تلخيصٌ دقيقٌ لما أفادته آيات الكتاب العزيز، وأحاديثُ النَّبيِّ الكريم، بعيدًا عن الأقوال المختلفة والآراء المتعددة.

قال الحافظ ابن كثير:

«والحَقُّ أنَّه- عليه الصلاة والسلام- أُسْرِيَ به يقظةً لا منامًا، من مكَّة إلى بيت المقدس راكبًا البُرَاقَ، فلمَّا انتهى إلى باب المسجد رَبَطَ الدَّابَّةَ عند الباب ودخله، فصلَّى في قِبْلَتِهِ تحيَّة المسجد ركعتين، ثمَّ أُتِيَ بالمعراج، وهو كالسُّلَّم ذو دَرَجٍ، يرقى فيها، فصعد فيها إلى السَّماء الدُّنيا، ثمَّ إلى بقيَّةِ السَّماوات السَّبْعِ، فتلقَّاه

من كلِّ سماءٍ مُقَرَّبُوها، وسلَّم على الأنبياء الذين في السَّماوات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتَّى مَرَّ بموسى الكليم في السَّادسة، وإبراهيم الخليل في السَّابعة، ثمَّ جاوز منزلتيهما- صلواتُ الله وسلامه عليهما وعلى سائر الأنبياء- حتَّى انتهى إلى مستوى يَسْمَعُ فيه صريفَ الأقلام؛ أي: أقلامَ القَدَرِ بما هو كائنٌ، ورأى سِدْرَةَ المُنْتَهَى وَغَشِيَهَا مِنْ أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراشٍ من ذهبٍ وألوانٍ متعدِّدة، وغشيتها الملائكة.

ورأى هناك جبريل على صورته وله سِتُّمائة جناح، ورأى رفرفًا أخضر قد سَدَّ الأُفُقَ.

ورأى البيتَ المعمورَ، وإبراهيمَ الخليل باني الكعبة الأرضيَّة مسنداً ظهرَه إليه؛ لأنَّه الكعبة السَّماوية، يدخله كلَّ يوم سبعون ألفًا من الملائكة، يتعبدون فيه ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة.

ورأى الجنَّة والنَّار، وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين، ثمَّ خفَّفها إلى خمسٍ؛ رحمةً منه ولُطْفًا بعباده، وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها.

ثمَّ هبط إلى بيت المقدس، وهبط معه الأنبياء، فصلَّى بهم فيه لمَّا حانت الصلاة. ويُحْتَمَلُ أنَّها الصُّبح من يومئذٍ، ومن النَّاس من يزعم أنَّه أمَّهم في السماء، والذي تظاهرت به الرِّوايات أنَّه ببيت المقدس، ولكن في بعضها أنَّه كان أوَّلَ دخوله إليه. والظاهر أنه بعد رجوعه إليه؛ لأنَّه لمَّا مرَّ بهم في منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحدًا واحدًا، وهو يخبره بهم، وهذا هو اللائق؛ لأنَّه كان أوَّلاً مطلوبًا إلى الجناب العُلْوِيِّ؛ ليُفْرَضَ عليه وعلى أمَّته ما يشاء الله تعالى، ثمَّ لمَّا فرغ من الذي أريد به، اجتمع هو وإخوانه من النبين، ثم أظهر شَرَفَه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل- عليه السلام- له في ذلك.

ثمَّ خرج من بيت المقدس فركب البُرَاقَ، وعاد إلى مكَّة بغلس [١٠]. والله سبحانه وتعالى أعلم.

وأمَّا عرضُ الآنِيَةِ عليه من اللَّبن والعسل، أو اللبن والخمر، أو اللبن والماء، أو الجميع؛ فقد ورد أنه

---

(١٠) أي: في جوف الليل وظلمته.

في بيت المقدس، وجاء أنه في السماء، ويحتمل أنه ههنا وههنا؛ لأنَّه كالضِّيافة للقادم، والله أعلم [١١].

(١١) تفسير القرآن العظيم: للحافظ بن كثير (٣٩/٥ – ٤٠).

المسألة الثانية
في تاريخه (١٢)

قيل: قبل الهجرة بسنة. قاله ابن مسعود وجَزَمَ به النَّوَوِيُّ.

وقيل: كانت قبل الهجرة بثلاث سنين. وقد حكاه ابن الأثير.

وقال الزهري: بخمس. وحكاه عنه القاضي عياض، ورجَّحه بالاتِّفاق على أنَّ خديجة صلَّت معه بعد فرض الصَّلاة، وأنَّها ماتت قبل الهجرة بثلاث أو بخمس، ولا خلاف أنَّ فرض الصلاة كان ليلة الإسراء.

وأُجِيبَ بأنَّ الصَّلاةَ التي صَلَّتْهَا معه هي التي كانت أوَّلَ البعثة: ركعتين بالغداة وركعتين بالعشيِّ.

أمَّا عن الشهر الذي كان فيه، فالذي رجَّحه ابن المنير على قوله في السَّنة ربيع الآخر.. وقيل في ربيع الأول.. وقيل: في رجب. وهو المشهور، ولكن ليس له دليل صحيحٌ يثبت به.

---

(١٢) هذا الخلاف الذي وقع في تحديد تاريخ تلك الرحلة وفي أيِّ ليلة كانت، إنَّما يرجع إلى أن المسلمين لم يتَّخذوا لهم تقويمًا إلا بعد وفاة الرسول، وبالتحديد في أيام عمر - رضي الله عنه - فتحديد أيِّ تاريخ قبل ذلك قد يكون محلَّ اختلاف؛ لعدم وجود تقويم يتفق الناس عليه.

المسألة الثالثة
في حكم الاحتفال به

إذا تبيَّنَّا أنَّ المؤرِّخين قد اختلفوا في تحديد زمن الإسراء والمعراج، وأنَّ أحدًا لا يستطيع الجزم بوقته على سبيل التحديد، فَمِنْ ثَمَّ لا وجه لتحديد يومٍ بعينه للاحتفال به؛ لأنَّنا لسنا على يقين أن هذا اليوم هو يوم الإسراء والمعراج، فإذا سَلَّمْنا جدلاً بأننا قد عرفنا في أيِّ ليلة وقع، فإنَّنا نحتاج إلى دليل شرعي يجيز لنا تخصيص هذه الليلة باحتفالٍ خاصٍّ؛ لأنَّ الأعياد توقيفيَّة؛ فلا يجوز لنا استحداث عيد إلا ما نَصَّ عليه الشارع.

فضلاً عن ذلك فإنَّه لم يثبت لدينا أنَّ النَّبيَّ ﷺ أو أحدًا من أصحابه قد احتفل بتلك الليلة، ومن ثَمَّ يكون ذلك العملُ بدعةً محدَثة؛ لأنَّها لم تَكُنْ من هَدْيِ النَّبيِّ ﷺ ولا أصحابه من بعده.

والواجب على المسلمين أن يتذكَّروا هذا الحَدَثَ الجليلَ طوال حياتهم، وألاَّ يخصِّصوا له وقتًا بعينه لتذَكُّرِه، والاحتفال به، بل هو جدير أن يذكر ويحتفل به كل وقت وحين.

المسألة الرابعة
مكان الإسراء

فباعتبار البلد، فالمشهور أنه بمكَّة.. ومن قال بالمدينة فمحمولٌ على التَّعدُّد بالمنام، وباعتبار المكان الخاص؛ فيؤخذ ممَّا تقدَّم في الأحاديث أقوالٌ: فقيل في المسجد، وقيل: بين المقام وزمزم، وقيل: في الحجر، وقيل: في بيته، وقيل في بيت أم هانئ.

وفي الشفاء ما يؤخذ منه أنه كان في بيت خديجة. ا.هـ.

المسألة الخامسة
الحكمة من الإسراء

الأولى: تكلم الناسُ في الحكمة في الإسراء به ﷺ أوّلاً إلى بيت المقدس قبل المعراج... فقيل: ليجمع في تلك الليلة بين القبلتين. وقيل: لأنَّ بيت المقدس كان هجرةَ غالب الأنبياء قبلَه؛ فحصل له الرحيل إليه في الجملة ليجمع بين أشتات الفضائل.

وقيل: لأنَّه محلُّ الحشر، وغالب ما اتفق في تلك الليلة يناسب الأحوال الأُخْرَويَّة؛ فكان المعراج منه أليق.

وقيل: للتفاؤل بحصول أنواع التقديس له حسًّا ومعنى.

وقيل: لإرادة إظهار الحقّ على من عاند؛ لأنه لو عرج به من مكَّة إلى السَّماء لم يجد لمعاندة الأعداء سبيلاً إلى البيان والإيضاح، فلمَّا ذكر- عليه الصلاة والسلام- أنَّه أُسْرِيَ به إلى بيت المقدس، سألوه عن جزئيَّاتٍ في بيت المقدس كانوا رأوها وعلموا أنَّه لم يكن رآها قبل ذلك، فلمَّا أخبرهم بها حصل التحقيق بصدقه

فيما ذكر من الإسراء إلى بيت المقدس في ليلة، وإذا صحَّ خبرُه في ذلك لَزِمَ تصديقُه في بقيَّة ما ذكر.

المسألة السادسة
حادثة شق الصدر

استنكر بعضُهم وقوعَ شقِّ الصَّدرِ ليلة الإسراء.. وقيل: إنَّما كان ذلك وهو صغير في بني سعد؛ كما روى أحمد عن عتبة بن عبد السلمي أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: كيف كان أوَّلُ شأنك يا رسول الله؟

قال: «**كانت حضَّانتي من بني سعد بن بكر، فانطلقتُ أنا وابنٌ لها في بُهْمٍ[١٣] لنا ولم نأخذ معنا زادًا، فقلتُ: يا أخي اذهب فَأْتِنَا بزادٍ من عند أمِّنا. فانطلق أخي ومكثتُ عند البُهْمِ.. فأقبل طيران أبيضان كأنَّهما نَسْرَانِ، فقال أحدُهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم، فأقبلا يبتدراني، فأخذاني فبطحاني إلى القفا، فشقَّا بطني ثمَّ استخرجا قلبي، فشقَّاه فأخرجا منه عَلَقَتَيْنِ سَوْدَاوَيْنِ.**

فقال أحدُهما لصاحبه: ائتني بماءٍ وثلجٍ، فغَسَلا به جَوْفِي، ثمَّ قال: ائتني بماءٍ بَرَدٍ، فغسلا به

---

(١٣) البهم: جمع بهمة وهي ولد الضأن، والمعنى انطلقنا نرعى بعض الأغنام.

قلبي، ثمَّ قال: ائتني بالسَّكِينَةِ فَذَرَاهَا[١٤] في قلبي، ثمَّ قال أحدُهما لصاحبه: خطَّه. فخطاه وختم عليه بخاتم النُّبُوَّة».

وقال ابنُ دحية في معراجه وابن المنير وغيرهما: الصحيح أن شقَّ الصدر مرتان.

قال شيخ الإسلام ابن حجر: بل ثلاث مرات[١٥] فقد ثبت أيضًا عند البعثة كما أخرجه أبو نعيم في الدلائل.

ولكلٍّ حكمة؛ فالأوّل كان زمن الطفولة؛ لينشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان.. ثمَّ عند البعث زيادةً في إكرامه؛ ليتلقَّى ما يُوحَى إليه بقلبٍ قويٍّ

---

(١٤) ذراها: أي فرقاها – السكينة – في قلبي.

(١٥) وتمام كلام الحافظ في فتح الباري: ووقع له ذلك ثلاث مرات: الأولى وهو صغير في بني سعد عند مرضعته حليمة، والثانية عند البعثة، والثالثة ليلة الإسراء.

قلت: بل وقع له الشق مرة رابعة وهو ابن عشر سنين لما أخرجه عبد الله بن أحمد: قال أبو هريرة: "يا رسول الله ما أول ما رأيت من أمر النبوة؟ فقال: إني لفي صحراء وأنا ابن عشر سنين وأشهر، وإذا بكلام فوق رأسي، وإذا برجل يقول لرجل: أهو هو؟ قال: نعم. فاستقبلاني بوجوه لم أرها لخلق قط، وأرواح لم أجدها من خلق قط، وثياب لم أرها على أحد قط.. فأقبلا إليّ يمشيان حتَّى أخذ كلُّ واحدٍ منهما بعضدي لا أجد لأخذهما مسًّا. قال أحدُهما لصاحبه: أضجعه، فأضجعاني بلا قصر (بلا قيد) ولا هصر (ولا أخذ بالرأس) فقال أحدهما لصاحبه: أفلق صدرَه، فهوى أحدهما إلى صدري ففلقها فيما أرى بلا دم ولا وجع. فقال له: أخرج الغلَّ والحسدَ. فأخرج شيئًا كهيئة العَلَقَةِ ثمَّ نَبَذَها فطرحها. فقال له: أدخل الرحمة والرأفة، فإذا مثل الذي أخرج شبيه الفضة، ثم هزَّ إبهام الرجل اليمنى فقال: أغد واسلم.. فرجعت بما لم أغد به رقة على الصغير ورحمة على الكبير.

في أكمل الأحوال من التَّطهير، ثمَّ عند الإسراء ليتأهَّب للمناجاة..

قال شيخ الإسلام ابن حجر: ويُحْتَمَلُ أن تكون الحكمةُ في هذا الغُسْلِ: لتقع المبالَغةُ في الإسباغ لحصول المرَّة الثالثة؛ كما هي في شرعه ﷺ في الطهارة.

قلت: وهذه حكمة من أعظم الحكم وألطفها وأدقِّها.

ثمَّ قال ابنُ حجر: وهذا الذي ذكر مِنْ شقِّ الصَّدْرِ واستخراج القلب ممَّا يجب التَّسليم له، ولا يُصْرَفُ عن حقيقته لصلاحية القدر؛ فلا يستحيل شيء من ذلك.

قلتُ: والأمر كذلك ويؤيِّده الحديثُ الصحيح أنَّهم كانوا يئوون أثر المخيط في صدره الشريف.

المسألة السابعة
علة وقوعه ليلا

قال ابن المنير: إنَّما كان الإسراء ليلاً؛ لأنه وقتَ الخلوةِ والاختصاصِ عرفًا، ولأنَّه وقتَ الصلاة التي كانت مفروضةً عليه ﷺ - في قوله تعالى: ﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (المزمل:٢) وليكون أبلغ للمؤمن في الإيمان بالغيب، وفتنةً للكافر، ولأنَّ اللَّيلَ محلَّ الاجتماع بالأحباب.

قال ابن دحية: ولإبطال قول الفلاسفة: إنَّ الظلمة من شأنها الإهانة والشر، وكيف يقولون ذلك مع أنَّ الله تعالى أكرم أقوامًا في اللَّيل بأنواعِ الكرامات، كقوله في قصة إبراهيم: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ (الأنعام: ٧٦) إلى آخره، وفي لوط: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ (هود: ٨١)، وفي موسى: ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً﴾ (الأعراف: ١٤٢)، وناجاه ليلاً وأمره بإخراج قومه ليلاً في قوله: ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً﴾(الدخان: ٢٣)، واستجابة دعاء يعقوب به وهو المراد في قوله: ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ (يوسف:

٩٨). قال المفسِّرون: أخَّره إلى وقت السَّحَر في ليلةِ الجمعة، وأظهر منه انشقاق القمر آيةً له ﷺ (١٦).

وإيمان الجن به وتبليغه إيَّاهم الوحيَ ليلاً.. مع تفضيل اللَّيل بسبقه النَّهار؛ أي تَقَدُّمه في الخلق، والابتداء به في جميع آيِ القرآن، وسبق اللَّيلة يومها إلا عرفة، وفيه – أي اللَّيل – ساعةُ إجابة، وهي في كلِّ اللَّيالي بخلاف الأيَّام؛ فهي منها في يوم الجمعة فقط. وفي الليالي ليلة خير من ألف شهر وهي ليلة القدر، وليس في الأيَّام يومٌ كألف شهر، فضلاً عن أن يكون خيرًا منها، وأطيبُ السَّمَرِ ليلاً؛ لِخُلُوِّ الفكر فيه، وألَذُّ الوصال ليلاً، بل هو وقته؛ لقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً﴾ (الفرقان: ٤٧) وإشراقُ القمر فيه، بخلاف النَّهار.

---

(١٦) وانشقاق القمر كان من المعجزات التي وقعت في زمن النبي ﷺ لإثبات الرسالة.

فقد روى البخاريُّ عن أنس بن مالك– رضي الله عنه– أن أهل مكة سألوا النبي ﷺ أن يريهم آية.. فأراهم القمر شِقَّيْنِ حتَّى رأوا حِرَاءَ بينهما... وعند البيهقيِّ من رواية عبد الله: فقال كفَّار قريش: هذا سحرٌ سحركم به محمد!!! انظروا السفارة – أي انتظروا المسافرين – فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق، وإن كانوا لم يروا مثل ما رأيتم فهو سحر سحركم به... فسئل المسافر... فقدم المسافرين من كل جهة فقالوا: رأينا. (تفسير ابن كثير). قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢)﴾.

قال ابن المنير: يؤخذ من قوله سبحانه: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾، ما لا يؤخذ أن لو قيل: بعث إلى عبده؛ لأنَّ الباء تفيد المصاحَبة؛ أي: صُحْبَةً في مَسْرَاه بالإلطاف والعناية والإسعاف.

المسألة الثامنة
تحقيق صلاته ﷺ بالأنبياء
هل كانت قبل العروج أم بعده

سبق في الأحاديث اختلاف، في أنَّه صلَّى ببيت المقدس بالأنبياء قبل العروج أو بعده.. وأنَّ ابن كثير صحَّح أنَّه بعدَه، وصحَّح القاضي عياض وغيره أنَّه قبله...

ويُحْتَمَلُ أنَّه- أي هذا اللقاء- كان بالأرواح خاصَّة، أو بها مع أجسادها، وأمَّا رؤيتُه لهم في السَّماء فمحمولةٌ على رؤية أرواحهم، وأنَّها تَشَكَّلَتْ بصورةِ أجسادهم، أو أُحْضِرَتْ أجسادُهم لملاقاة النَّبيِّ ﷺ تشريفًا له وتكريمًا.

المسألة التاسعة

علة استفتاح جبريل عليه السلام أبواب السماء

استفتاحُ جبريل أبوابَ السماء؛ لأنَّ ذلك أبلغ في الإكرام؛ لأنَّه لو رآها مُفَتَّحَةً لَظَنَّ أَنَّهَا لا تزال كذلك، ففعل ذلك؛ ليعلم أنَّ ذلك لأجله تشريفًا، ولأنَّ الله أراد أن يُطْلِعَهُ على كونه معروفًا عند أهل السَّموات أيضًا؛ لأنَّه قيل لجبريل لمَّا قال محمَّد: أُبْعِثَ إليه؟ ولم يقل: ومن محمَّد؟ مثلاً.

المسألة العاشرة
أماكن الأنبياء في السماء والحكمة فيها

الأضبط في روايات محلّ الأنبياء؛ أنَّ آدم في السَّماء الأولى، ويحيى وعيسى في الثانية، ويوسف في الثالثة، وإدريس في الرابعة، وهارون في الخامسة، وموسى في السادسة، وإبراهيم في السابعة.

واختُلف، في الحكمة في اختصاص كلٌّ منهم بالسَّماء التي التقاه فيها...

فقيل:

١- للإشارة إلى تفاضل درجاتهم عند الله [١٧].

٢- وقيل: الحكمةُ في الاقتصار على المذكورين، الإشارة إلى ما سيقع له- صلوات الله عليه- مع قومه من نظيرِ ما وقع لكلٌّ منهم.

- فأمَّا آدم فوقع التَّنبيه بما وقع له من الخروج من الجنَّة إلى الأرض؛ بما سيقع للنَّبيِّ ﷺ من الهجرة إلى المدينة، والجامع بينهما ما حصل

---

(١٧) قال تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ (البقرة: ٢٥٣).

لكلٍّ منهما من المَشَقَّةِ وكراهة الفراق وما أَلِفَهُ مِنَ الوطن، ثمَّ كان عاقبةُ كلٍّ منهما أن رجع إلى موطنه الذي أخرج منه.

- وبعيسى ويحيى على ما وقع له أوَّل الهجرة من عداوة اليهود وتمالؤهم على البغي عليه، وإرادتهم وصول السوء إليه.
- وبيوسف على ما وقع له مع إخوته من قريش من نَصْبِهم الحربَ له وإرادتِهم هلاكَه، وكانت العاقبةُ له، وقد أشار إلى ذلك بقوله لقريش يوم الفتح: «**أقول كما قال أخي يوسف:** ﴿ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ ﴾(يوسف: ٩٢)».
- وبإدريس على رفع منزلته عند الله.. فقد قال الله عن إدريس: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِياً﴾ (مريم: ٥٧).
- وبهارون على أنَّ قومَه رجعوا إلى محبَّته بعد أن آذَوْهُ.

- وبموسى على ما وقع له من معالجة[١٨] قومه، وقد أشار إلى ذلك النبيُّ ﷺ بقوله: «**لَقَدْ أُوذِيَ مُوسَى بِأَكْبَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ**»[١٩].
- وبإبراهيم في استناده إلى البيت المعمور، بما خُتِمَ له ﷺ في آخر عمره من إقامة منسك الحجِّ، وتعظيم البيت.

وقد ذكر السُّهَيْلِيُّ واستحسنه شيخُ الإسلام ابن حجر.

وقد ذُكِرَ في مناسبة لقاء إبراهيم في السابعة معنى آخر لطيف، وهو ما اتَّفق له- صلى الله عليه وآله وسلم- من دخول مكَّة في السَّنةِ السَّابعة، وطوافه

---

(١٨) قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴾ (الأحزاب: ٦٩).

(١٩) روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – قال: لما كان يوم حنين – غزوة حنين – آثر رسول الله ﷺ ناساً في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة بن حصين مثل ذلك، وأعطى ناسًا من أشراف العرب وآثرهم يومئذ في القسمة – يتألف قلوبهم بذلك – فقال رجل: والله إن هذه قسمة ما عدل فيها، وما أريد فيها وجهُ الله.. فقلت: والله لأخبرنَّ رسولَ الله ﷺ فأتيته فأخبرته بما قال، فتغيَّر وجهُه حتَّى كان كالصرف – كالمصبوغ بحمرة – ثم قال: «فَمَنْ يَعْدِلُ بَعْدُ إِذْ لَمْ يَعْدِلِ اللهُ وَرَسُولُهُ» ثم قال: «يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى؛ قد أوذي بأكثر من هذا فصبر».

بالبيت، ولم يتَّفق له الوصولُ إليها بعدَ الهجرةِ قبلَ هذا، بل قصدها في السَّنة السَّادسة، فَصُدَّ عن ذلك[٢٠].

وقال أبو حمزة: الحكمة في كون آدم في الأولى: أنَّه أوَّلُ الأنبياء، وأوَّلُ الآباء، وهو أصلٌ؛ فكان أوَّلاً في الآباء، ولأجل تأنيس النُّبُوَّةِ بالأُبُوَّة، وعيسى في الثَّانية؛ لأنَّه أقربُ الأنبياء عهدًا من محمدﷺ[٢١].

وبِلِيهِ يوسفُ؛ لأنَّ أمَّة محمَّدٍ ﷺ يدخلون الجنَّة على صورته.

وإدريس قيل لأنَّه أوَّلُ مَنْ قاتل للدِّين، فلعلَّ المناسبة فيه الإذن للنَّبيِّ ﷺ بالمقاتلة، ورفعه بالمعراج؛ لقوله تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِياً﴾ (مريم: ٥٧)، والرَّابعة من السَّبع وسطٌ معتدل.

وهارون لقُرْبِهِ من أخيه موسى، وموسى أرفع منه لفضل كلام الله.

---

(٢٠) إشارة لما وقع يوم الحديبية، حيث رفض المشركون دخول رسول الله ﷺ لمكة على أن يعود في العام المقبل... ووقعت بذلك معاهدة حوت بنودًا أخرى، وعرفت باسم صلح الحديبية.

(٢١) روى مسلم من حديث أبي هريرة، أنَّ النبي ﷺ قال: «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الأولى والآخرة»، قالوا: كيف يا رسول الله، قال: «الأنبياء أخوة من علات أمهاتهم شتى ودينهم واحد، فليس بيننا – أي أنا وعيسى – نبي».

وإبراهيم لأنَّه الأبُ الأخير؛ فناسب أن يتجدَّد للنَّبيِّ ﷺ بلُقْيَاهُ أُنْسٌ؛ لتَوَجُّهِه بعد ذلك إلى عَالَمٍ آخَرَ، وأيضًا فمنزلةُ الخليل تقتضي أن تكون أرفع المنازل، ومنزلة الحبيب أرفع، فلذلك ارتفع عنه إلى قاب قوسين أو أدنى.

المسألة الحادية عشر
الحكمة في تخصيص موسى عليه السلام بمراجعة النبي ﷺ

قال القرطبيُّ: «الحكمةُ في تخصيص موسى بمراجعة النَّبيِّ ﷺ في أمر الصَّلاة لعلَّها لكَوْنِ أمَّة موسى كُلِّفَتْ من الصَّلوات بما لم يُكلَّف به غيرُها من الأمم، فثقلت عليهم، فأشفق موسى على أمَّة محمد ﷺ من مثل ذلك. ويشير إليه قولُه: إنِّي جرَّبْتُ الناس قبلك».

وقال شيخُ الإسلام ابن حجر: «يُحْتَمَلُ أن يكون موسى لمَّا غلب عليه في الابتداء الأسفُ على نقص حظِّ أمَّته بالنِّسْبَةِ إلى أمَّةِ محمَّدٍ حتَّى تمنَّى استدراك ذلك ببذل النَّصيحة لهم والشَّفَقَةِ عليهم؛ لِيُزِيلَ ما عساه أن يتوهَّم عليه فيما وقع منه في الابتداء».

المسألة الثانية عشر
رؤية النبي ﷺ لربه ليلة المعراج

اختُلف هل رأى النَّبيُّ ﷺ رَبَّه ليلة المعراج؟... على قولين مشهورين؛ فأَثْبَتَ الرُّؤْيَةَ ابنُ عبَّاس وطائفةٌ، وأنكرتْه عائشةُ(٢٢).

والصَّحيحُ ثبوتُ الرُّؤْيَة؛ فقد روى أحمدُ من حديث ابن عبَّاس، قال: قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ رَبِّي تبارك وتعالى». وعند الطَّبرانيِّ من حديث ابن عبَّاس قال: نَظَرَ محمَّدٌ ﷺ إلى ربِّه تبارك وتعالى... قال عكرمة- وهو من التابعين- فقلتُ لابن عبَّاس: نظر محمَّد إلى ربِّه؟ قال: نعم، جُعِلَ الكلام لموسى، والخلَّة

---

(٢٢) بالغت الصديقة عائشة- رضي الله عنها- في إنكار ذلك؛ فقد روى مسلم بسنده عن مسروق قال: كنت متكئًا عند عائشة، فقالت لي: ثلاث من تكلم بواحدة منهم فقد أعظم على الله الفرية، قلت: ما هن؟ قالت من زعم أن محمدًا ﷺ رأى ربَّه فقد أعظم على الله الفرية.. قال وكنت متكئًا فجلست فقلت: يا أمَّ المؤمنين أنظريني ولا تعجليني، ألم يقل الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ المُبِينِ ﴾، ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾، فقالت: أنا أول هذه الأمَّة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: «إنَّما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين رأيته منهبطًا من السماء السادسة سادًّا عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض». فقالت: أولم تسمع أنَّ الله يقول: ﴿ لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ ﴾، أولم تسمع أنَّ الله يقول: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (الحديث: ٣/٨).

لإبـراهيم، والنَّظـر لمحمـد ﷺ. (أخرجهمـا الحـاكم فـي المستدرك).

المحتويات

مقدمة..... ٢

مع الرسول صلى الله عليه وسلم في الإسراء والمعراج ٤

ليلة الإسراء – بيت المقدس..... ٥

ما قبل الإسراء ٩

إلى بيت المقدس ١٦

رحلة المعراج ٢٢

العودة ٣٧

مسائل تتعلق بالإسراء والمعراج ٤٣

المسألة الأولى: حقيقة الإسراء والمعراج ٤٤

المسألة الثانية: في تاريخه..... ٥٠

المسالة الثالثة: في حكم الاحتفال به..... ٥١

المسألة الرابعة: مكان الإسراء..... ٥٢

المسألة الخامسة: الحكمة من الإسراء ٥٣

المسألة السادسة: حادثة شق الصدر..... ٥٥

المسألة السابعة: علة وقوعه ليلاً..... ٥٨

المسألة الثامنة: تحقيق صلاته ﷺ بالأنبياء هل كانت قبل العروج أم بعده ٦١

المسالة التاسعة: علة استفتاح جبريل عليه السلام أبواب السماء ٦٢

المسألة العاشرة: أماكن الأنبياء في السماء والحكمة فيها..... ٦٣
المسألة الحادية عشر: الحكمة في تخصيص موسى عليه السلام بمراجعة النبي ﷺ..... ٦٨
المسألة الثانية عشر: رؤية النبي ﷺ لربه ليلة المعراج ٦٩